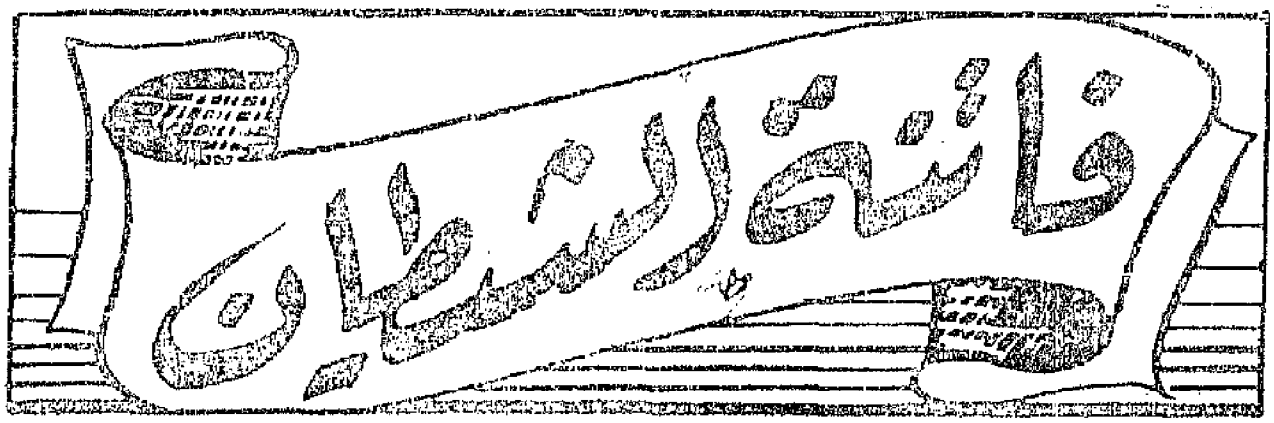

مغارة قاديشا هي احدى المغاور الجبلية في شمال لبنان . كهف هائل رهيب يشق أحشاء الجبل ، ويتشعب دروبا متعرجة لاتكاد تنتهي الى آخر ، ويسوده زمهرير لاذع لايختلف صيفا ولا شتاء ، ويتحدر فيه ينبوع عذب من ذوب الجليد الذي يتوج اعراف الجبل في معظم فصول العام يهدر الماء منه هديرا يضاعف من جلاله ترجيع الصدى بين هذه الجدران الحجرية الخرساء .

ويتحلب الماء من جدران الكهف وسقوفه ، فيتقاطر رذاذا لاينقطع ، ويغذي مجرى الينبوع بفيض متجدد . وترسب الاملاح من هذا القطر المنهمل على مسقطه من السقف ، وعلى موقعه من الارض فتتبلور هذه الاملاح على مر الدهور ، وتتألف منها عروق كعروق المرمر تتدلى من السقف كالجدائل ، وتنبثق من القاع كالاوتاد ، وكأنها ضرع في صدر الجبل ترضع منه جذور الصنوبر والسنديان .

ان لمغارة قاديشا عظمة بالغة . ان الماء ذلك السائل اللين الضعيف يستطيع من الصبر والدءوب ان ينحر الجبل ، كما يستطيع ان يكسو الجبل بالحب والنبات ، كما يستطيع أن يستحيل هو نفسه الى أصلب من الصخر كلما أراد ! . . .

ولكن مغارة قاديشا لها قصة أروع من كل هذه العظات .

قال صديقي ونحن نجتاز باب المغارة : ـ

ـ واسوأتاه « أمن أجل هـذا الكهف البارد الموحش تركنا متعة العين والفؤاد بجمال الله الفارى فى تل أبيب ! . . . هذه « ثلاجة » وما كان أحرانا ان نبقى فى القاهرة ونلتمس مثلها فى « سوق الخضار » . .

كان صديقى يحب الجمال ، ويعجب به كلما أحسه ، ولكن احساسه بالجمال كان من البطء بحيث يحتاج دائما الى ترجمان !

كان يرى الزهرة فيعمى عنها . . . حتى توضع أمام عينه فى اصيص جميل . . .

وكان يرى الفادة الهيفاء ، فيسخر منها . . . حتى يجد من يوقظه بلطف الى عينها الساجية ، وثغرها الحلو ، وقوامها الفتان ، فيتأمل فيها قليلا ويخرج من تأمله عاشقا لتلك التى كان يسخر منها منذ لحظات !

* * *

قلت :

ـ أنصت جيدا . . . الا تسمع همسا خافتا يتردد فى جوانب الغار ؟ .

ـ لا أكاد أسمع الا هدير الماء . . . .

ـ انك أصم . . . جرد أذنيك من طنين الدنيا فتسمع همسا خافتا ينادى « قاديشا . قاديشا » بلحن حزين ممدود . . .

ـ أجل أكاد اسمع مثل هذا الهمس يتخافت فى أذنى مختلطا بهدير الماء . . .

ـ تطلع أذن الى ماحولك . . . الا ترى شيئا .

ـ لا أرى غير الماء والحجر فى كل مكان .

ـ تأمل هذه العروق الناتئة من قاع الغار . . . الا ترى فيها سفا من الدمى المرمرية مقوسة الظهور ؟ .

ـ أجل . . . لكأنى بها رهبانا عاكفين على الصلاة فى محراب .

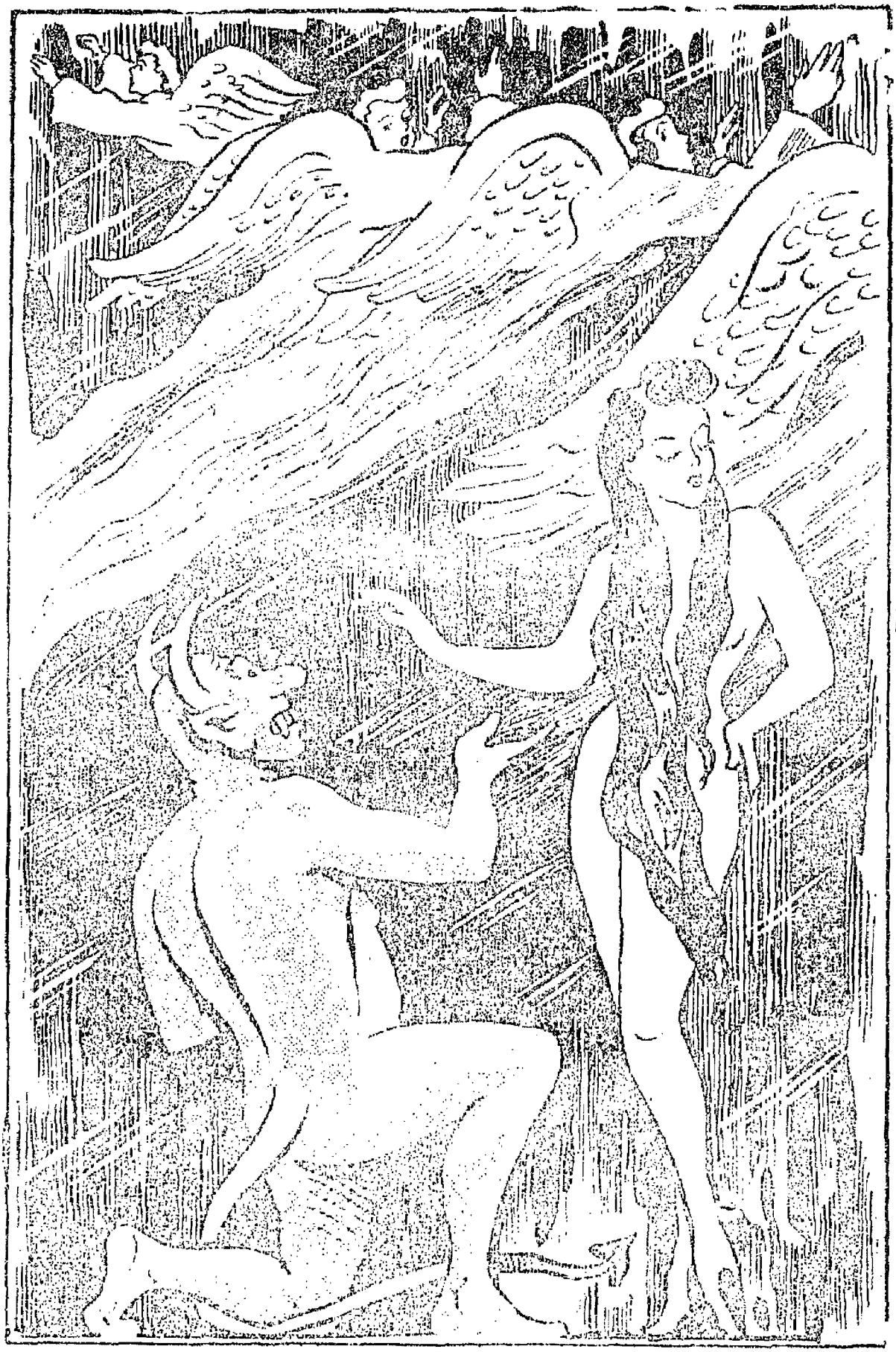

وقالت ديدمونا : ان الطاهرين والاتقياء احب الي من وجهك انكريه

ـ ترى لمن تتعبد هذه الدمى؟ ... من هذه القديسة التى جنا لها الكل ركعا خاشعين ؟ ... تأمل فى صدر الجبل حيث اتجهت هذه العيون العابدة الى قدس الكائن المعبود .

ـ ان الظلام يغشى كل شىء هناك .

ـ حدق يارجل ...

ـ لا أكاد أرى شيئا .

ـ تأمل يا أعمى فى هذه العناقيد الرمرية المدلاة من سقف المغارة كالشموع ... الا تذكرك بمنظر حبيب مألوف ؟.

ـ لكأنى بها جدائل من الشعر الفسجدى تتدلى من رأس غانية حسناء ! .

ـ انها لكذلك ... اتبعها الى حيث تشخص عيون الدمى الخاشعات .

ـ يا الهى هذا جسد فاتن منحوت فى صدر الجبل .. وكأنى بوجه يطل علينا من وراء هذه الجدائل الذهبية مسبل الاجفان . اية روعة فى هذه التقاطيع الحجرية ! . ... بل اى رهب يكسوها ! .. واى شحوب هذا الذى شاع فى تلك الشفاه والوجنات . !

ـ الان بدأت عينك الضريرة ترى فى الظلام ... تحسس اذن هذه الجدائل المدلاة ! ...

ـ انها باردة كالثلج ، نديه مثل طل الفجر على ورق الشجر ...

ـ وكذلك هذه الدمى الجاثية ، وكذلك هذا القطر المنهل من سقف المغارة فى كل مكان .. ان الموت يخيم على كل شىء فى الغار ، وهذه برودة الموت ... لقد كان يدب فى هذه الاجسام كلها دفء الحياة ، ثم فارقتها الروح ، ففارقها الدفء ، فبردت شر مايبرد الرفاة فى الاجداث ...

ـ وهذا الهمس المتردد مع هدير الماء ؟ ..

ـ هذا شجن الشيطان ... وهذا القطر المنهل من كل مكان دموعه على هواه ...

* * *

كانت «قاديشا» حورية تعيش في الجبل ، لايدري أحد متى هبطت لبنان ...

وكان لبنان يومئذ قفرا لايسكنه بشر ، وكانت قممه الشامخة جرداء لا خضرة فيها ولا ماء . وكانت قاديشا تطفر بين هذه الربى والوهاد كالظبى ، عارية لايستر جسدها الا جدائل شعرها العسجدي الاثيث ..

وكانت عيون القمم ترنو بحسرة العاشق الى هذا الجسد الناضر الريان ، وتهتز قلوب الربى بالوجد كلما وطئتها أقدام قاديشا ، وهى تثب عليها نشوى بحمياء شبابها الخالد وصباها الذى لايبلى ، وجمالها الذى لايزول ولا يحول .

وذابت ربوة من هذه الربى صبابة ، فأخضر الارز من قلبها الذائب ، أول ما اخضر الشجر على ربى لبنان ...

واستحالت بضعة من قلبها الحزين بلبلا أخرس ، يبكى على أغصان الارز هواه اليائس المسكين .

وبين هذه الربى كانت ربوة عاتيه يسكنها شيطان ...

ورأى الشيطان قاديشا يوما تستحم فى ضوء القمر ، ففتنته حبا ، فراح يتبعها فى كل مكان ويبثها هواه المكتوم من حيث لاتسمعه ولا تراه ...

وازداد هيامه بها على مر الايام ، وخشى ان يظهر لها فيهولها منظره ، فراح يهتف باسمها بأرق ما يستطيع من نجوى العشاق ، فيقع هتافه فى سمعها كفحيح الافاعى ، فتتلفت من حولها مذعورة ، فلا ترى أحدا ، فيعاودها الامن والسلام .

وبرح الوجد بالشيطان ، فاعتزم ان يبدو لها ، ويسجد تحت قدميها لعلها ترق لحبه او تلين ...

وكانت قاديشا منذ سمعت فحيحه لا تنام الا لماما ، وان نامت نامت كالذئبة باحدى مقلتيها ، وتركت الاخرى مستيقظة ترقب أحداث الزمان .

واذ هى مضطجعة ذات ليلة فى حضن ربوة ، رأته رأى العين يسترق خطاه نحوها ، ويهمس باسمها همسه الرهيب فامتلأت رعبا ، وصرخت صرخة هائلة ، رددتها الوهاد والآكام ، وراحت تثب بكل قوتها بين الربى باحثة عن كهف يعصمها من الشيطان .

وظل الشيطان يتبعها حيثما ذهبت ، وعينه ترمى باللهب ، وفؤاده يتلظى بلاعج هوادوسعار وجده المتأجج ينفث زفراته المحرقة على سفوح الجبال ، فيحترق الصخر كلما أصابه الزفير ... (ولا تزال هذه الصخور المحترقة باقية الى اليوم فى لبنان تميزها زرقتها الكالحة من المروج الخضراء !) .

راحت قاديشا تركض يائسة ، حتى أتت هذه المغارة ، فاقتحمتها مستعيذة بظلامها من طراد الشيطان ...

وأدرك الشيطان أن قاديشا وقعت فى فخ ، فلم يكن للمغارة الا باب واحد على كثرة مافيها من أقبية ودروب ...

ووقف الشيطان بالباب ، يفتل ذؤابته بأنامل ترعشها الصبابة وينظر الى ظله فى ضوء الفجر المشرق ، فيصلح من أمر نفسه ماشعثه الطراد ...

اقتحمت قاديشا المغارة ، وراحت تلتمس فيها مخبأ ، فوجدت صخرة عالية منبسطة تسلقتها ، والصقت ظهرها بالجبل تحتمى فيه ، وانعطف رأسها تحت سقف المغارة ، فتدلت جدائل شعرها كسبائك الذهب ... ولبثت تنتظر وقلبها يخفق خفقان الطائر المذبوح ...

وترنحت الصخور من حول قاديشا ، فنتأت قلوبها من جوف الحجر ، وركعت من حولها صفا ، تتمتم بصلاة خاشعة لهذا الجمال الفذ ، وتقول : ماهذا بشرا . . ان هذا الا ملك كريم ! .

وآلت الصخور على نفسها ان تحميها من الشيطان بالمهج والأرواح.

وجاء الشيطان فاخذ يسكب فى أذنها عن كثب أرق ماوقع فى أذن امرأة من زفرات شاعر ولهان ...

ولكن الفاظه الرقيقة كانت تقع فى آذان قاديشا موقع الصواعق.

وعندما غناها بدت لها أغانيه كهزيم الرعود ...

فاخذ يحتال لهواه بالامانى والوعود ..

ـ سانحت لك ياقاديشا عرشا من أرز لبنان ... سأضع على رأسك تاج الشرق كله مرصعا بلآلىء البحرين ... سأحلى أذنيك باقراط من ياقوت سرنديب تعيذك من الطاعون .. سازين صدرك بقلائد الزمرد، تفقأ عيون الافاعى اذا نظرت اليك ... سأفرش لك الجبل بفتات المسك وريش النعام ... سأسقيك عصير الكروم اليمنية فى أقداح من قرون الكركدن ... سأحرق العود والصندل تحت قدميك ياقاديشا ، بل ان شئت أحرقت لك أناملى بخورا تسكرين من عبيره الفواح ...

قالت قاديشا :ـ

ـ أنت وعروشك وتيجانك الى جهنم ... ان الطاعون والافاعى أحب الى من وجهك الكريه ...

وعيل صبر الشيطان ، وقدحت عيناه بالشرر ، وتصاعد الدخان من منخره تصاعد الحمم من بركان ، وصرخ بقاديشا صرخة زلزلت رواسى الجبال .

ـ لتستحيلى يا قاديشا الى حجر ، ولتمسخ هذه الاماء التى تعبدك الى دمى ، ولتخرس الى الابد هذه الصلوات المسبحة بجمالك فى لبنان ، ولاثل منك ميته ماعجزت عن نيله وأنت على قيد الحياة ...

لم يكد صدى صرخة الشيطان يفنى فى المغارة حتى استبد بها سكون كسكون المقابر ، وفنيت فى الظلام تسابيح المصلين ،

وشاعت الظلمة فى المغارة لايقطعها الا قبس وهاج يشع كالشهاب من عين الشيطان ...

واقبل الشيطان على قاديشا يتهادى كالوحش الكاسر مطمئنا الى استسلام الفريسة ...

لمس جدائل الشعر فالفاها باردة كالثلج ..

ونظر الى الوجنات التى كانت منذ لحظة يتوهج فيها الشباب والرعب فاذا هى شاحبة شحوب الموت .

وتحسسها بأنامله فألفاها كالجليد ...

وقبل الشفاه التى كان يقطر منها السحر منذ هنيهة فلذعته لذع الصقيع .

وثار جنون الشيطان فصاح بها .

ـ قاديشا ... قاديشا... عودى الى الحياة .

ولكن قاديشا لم تعد الى الحياة ، وظلت جدائلها المدلاة كأنها عروق من المرمر المصقول وبقيت الدمى الحجرية الراكعة لسحر قاديشا صامتة خرساء ..

ان الشيطان يسلب ولا يهب وا أسفاه ! ..

ـ قاديشا ... قاديشا ... ان الشيطان منذ ذلك اليوم ينادیها فلا تجيب ... ويبكيها فتجرى دموعه ظلا وثمرا على روابى لبنان ...

لقد وجدت قاديشا فى الموت آمن ملاذ ... وتركت روحها تهيم فى الجبل ، فتذوب فى جوه نسيما ، وتذوب فى أرضه خصبا ، وتظل من كل عين حلوة عاشت أو تعيش فى لبنان .

ان حمرة وجناتها هى التى تصبغ فيه غلائل الورد وثمر التفاح ...

ونقاء قلبها هو الذى يغذى حب الصنوبر ...

وصوتها الرخيم هو الذى ينطق انبلابل على أغصان الارز الحزينة .

ان قاديشا خلقت لبنان .

* * *

كان القمر يرسل شعاعا خابيا من قرصه الغارب الى غرفة الفندق التي نمنا فيها انا وصديقي بمصطافنا الجبلي في قرية ... « سير » .

وكان صديقي مستغرقا في النوم ، ولكنه كان يتقلق في السرير بين الحين والحين ، ويلوح بطيطه على خرير الماء ، ودبيب الشيطان تجري من حولنا في كل مكان ...

وانقطع الغطيط بغتة ، وسمعت حشرجة تنبعث من حلق صديقي الراقد ، ثم سمعته ينادي :

ـ قاديشا ... قاديشا ...

فعرفت انه غفر لي حيلولتي بينه وبين المتعة بجمال الله الساتر في تل أبيب ! .